الفصل السادس

النمو في محيط الأسرة

من الممكن أن يعتبر الطفل الصغير ، إبّان طفولته المبكرة ، متكيفاً تكيفاً ملائماً للبيئة التي يعيش فيها . فهو يتغذى من أمه ، وينام فى دعة واطمئنان ، كما تنال حاجاته كل عناية واهتمام . فالطفل السليم يظفر من أمه الموفورة الصحة ، ومن بيئته الحافلة بأسباب الدفء والراحة ، بإشباع حاجاته القليلة بمجرد ظهورها ، إذ يتوفر له الغذاء والمأوى والدفء ، وكذلك الحنان والأمن .

ولكن الصعوبات تبدأ فى الظهور فى أفق حياته بمجرد أن يغدو قادراً على أداء بعض الأعمال بنفسه ، فيكتشف أن ما يريد فعله قد يتعارض مع رغبات أبويه ، وعندئذ يشعر بأن مطالبهما قد تعترض السبيل فى تحقيق رغباته ، فيظهر عنده الميل إلى استخدام ما يملك من قوة للتغلب على هذه الحوائل ، واستئناف ما يريد من نشاط . ولكن الخبرة تعلمه فى وقت وجيز أنه ليس بعد قادراً من الناحية الجسمية على التغلب على أبويه ، كما أن حبه لهما قد يضعف من شدة ميله لمقاومة رغائبهما ، كذلك يتأثر موقفه

حياتهما بطريقتهما فى فرض آرائهما عليه ، فهما قد يعملانه برقة وحنان مشوبين بالحزم والإصرار على ضرورة تنفيذه مطالبهما ، أو يستخدمان معه العنف ويضيقان بسلوكه ، مما يزيد فى استيائه وحنقه . كل هذه أمور مألوفة خصوصاً فى المرحلة التى يحاول فيها الأبوان وضع بذور العادات النافعة مثل النظافة ، والصحة الشخصية ، وآداب المائدة ، وما شابه ذلك . فإذا ما أصاب الكبت هذه الاتجاهات بسبب إدراك الطفل معنى تدريبه على تلك العادات ، وقبوله لها ، فإنها قد تعاود الظهور فى مراحل النمو التالية ، وتأخذ فى التعبير عن نفسها فى صور مختلفة من السلوك المصطبغ بألوان العداء .

ويشب الطفل فى البيت على التواكل الذى يتضاءل تدريجاً بتقدمه فى السن ، إذ يتعلم بمرور الزمن أداء مختلف الأعمال بنفسه ، والحصول على الإشباع الذي يريده ، على الرغم من أنه يظل معتمداً على أبويه فى غذائه وكسائه ومأواه . كما يظل يتوقع الحب منهم ، ويلتمس الأمن فى كنفهم . وهو يتعلم إبان هذه الفترة من حياته الكثير عن علاقاته بغيره ، فيعرف أنه لا يستطيع أن يطالب بما كان يتمتع به فى طفولته كما لو كان حقاً من حقوقه ، كما يتعلم أن لسواه من أعضاء الأسرة حقوقاً مثله ، وأنه لا بد أن يلبى رغائبهم حتى يستجيبوا هم أيضاً لمطالبه .

وقد ينجم عن ميل الطفل إلى الاستقلال بنفسه ، وإدراكه فى نفس الوقت أن فى وسع أبويه أن يحولا دون ما يريد ، أن يحاول إشباع غرائزه بوسائل يعلم أنها سوف تقابل بالاستهجان . فقد يأكل أشياء يعلم أنه ما كان

ينبغى عليه أن يقترب منها ، وإذا ما اكتشفت سرقته فإنه يلجأ إلى الكذب ليتجنب العقاب . كما أنه قد يهتاج ويعلو صراخه إذا ما حيل بينه وبين فعل ما يريد ، أو يلحق الأذى بالصغار من إخوته وأخواته ، أو يتلف أشياء تخص أبويه أو الكبار من أشقائه وشقيقاته بقصد الثأر منهم . وتكون تلك الفعال تافهة فى بادىء الأمر لأن مرتكبها طفل صغير ، أما فى حالة الأطفال الكبار ، أو الراشدين ، فإنها تنقلب ضرباً من الجناح ، أو تغدو جرائم خطيرة . والسن التى يكون فيها الجانح تحت طائلة القانون لا تشير إلى الوقت الذى يبدأ فيه ظهور النزعات الجناحية .

وغالباً ما تكون النظرة إلى الجناح ذات جانب واحد ، فى الوقت الذى ينبغى فيه أن تكون ذات جانبين . فالجناح ارتكاب مخالفة ضد شخص من الأشخاص ، أو التمرد على سلطته ، أو اغتصاب بعض حقوقه . وهذا يثير عنده الرغبة فى الانتقام عن طريق العقاب الذى يقصد به تأكيد حقوقه ، وأهميته ، وقوته . هذا هو أحد الجانبين ، وهو الجانب المألوف لكثير من الأطفال التاعسين ، كما أنه الجانب الذى لا يرى الآباء العاديون سواه — باستثناء حالات الغضب الشديد — عند ما يعاقبون أبناءهم ويقول (السير سيريل برت) أن تسبيب الألم المباشر قد يكون ذا قيمة ، وله ما يبرره من الناحية السيكولوجية ، من حيث أنه يحول دون تحول النزعات الاندفاعية العارضة إلى عادات مكينة ، كما أنه يؤكد حقوق الغير ، ويدرب الطفل على احترامها . أما الناحية الثانية للمسألة فهى أن الجناح وسيلة للتعبير

عن رغبة الطفل فى الحصول على إشباع محروم منه ، وتلك رغبة قد تكون طبيعية ، شأنها شأن الرغبة فى الحصول على الطعام عند الجوع (١) .

وقد تكون هذه الناحية من ناحيتى الجناح فى حاجة إلى إيضاح . فلنأخذ مثلا حالة طفل كان وحيد أبويه ، فاستطاع لذلك أن يستأثر بكل حنانهما ورعايتهما مدة سنتين أو ثلاث سنوات ، حتى وضعت أمه مولوداً جديداً . وعندئذ لاحظ أن سابق عناية أبويه به ، وانتباههما إليه ، قد تحولا إلى الوليد الجديد . وهنا ينتابه الشعور الذى يحس به الملوك عندما يرون العرش قد اغتصب منهم . فهو يحس أن حقاً من حقوقه قد أُخذ منه لغير ما ذنب جناه ، فعلى من يصب لومه ؟ وإلى من يوجه استياءه ؟ إلى أمه لخيانتها ؟ أم إلى المغتصب الدخيل الذى حرمه من حقه ؟ وهو كثيراً ما يسلك الطريق الثانى ، فنراه يؤذى الوليد بطرق ماكرة ، وإذا ما أقبلت أمه على صراخ وليدها ، فإن الطفل يتصنع البراءة ، وينبئها أنه ليس ثمة ما يدعو إلى بكاء أخيه ، لأنه لم يفعل له شيئاً . كذلك قد يلقى بزجاجة لبنه على الأرض لتتحطم ، فيحرمه من غذائه ومن لذة تناوله . أو أنه يخرجه من عربته ، أو يدفع بالعربة وهو فى داخلها إلى عرض الطريق ، أو يحاول كتم أنفاسه بإلقاء وسادة فوق رأسه . كل تلك أمثلة لفعال حدثت كثيراً . ومن المحتمل أن يكون الطفل الصغير مدركا لخطأ ارتكابها ، ولكنه يحس فى قرارة نفسه أنه قد ارتُكِبَ خطأ فى حقه أيضاً . فهو يعتقد

---

(1) Sir Cyril Burt : Young Delinquent p. 527 (Text and Foot - note).

أن زوال الطفل من طريقه سوف يتيح له استعادة ما خيل إليه أنه فقده من عطف أبويه وحبهما . ومثله فى ذلك مثل الملك المخلوع الذى يعتقد أن القضاء على مغتصب عرشه حقيق باستعادة ولاء شعبه إليه بشكل آلى . فإساءات الطفل إلى الوليد تقوم على رغبته فى استرجاع حب الأبوين .

وقد يتخذ سلوك الطفل صورة أخرى ، إذ يلجأ إلى المشاكسات الخرقاء ، وقد تأسف الأم على ما يبدر منه ، مؤكدة أنه كان دوماً مثال الدعة والخلق الحميد فى البيت ، ولكنها لا تطمئن بعد ذلك إلى ابتعاده عن نظرها . وتلك هى الغاية التى يسعى إليها من وراء مشاكساته ، فهو لا يريد ابتعاد أمه عنه ، بل يرغب فى تحويل كل انتباهها إلى نفسه ، ويريد — بوجه خاص — أن تنبذ وليدها وتعنى به هو .

فالجناح فى أحد مظاهره مطالبة بالحب والرعاية ، وقرينة توحى بوجود نقص فى بيئة الطفل . ومن الممكن تهيئة الطفل مقدماً لمولد أخيه أو أخته ، وإشعاره بأن الوليد ينتمى إليه قدر انتمائه إلى والديه . فقد حدث أن صبياً صغيراً كان يحاول حمل أخيه الصغير السمين عندما أشار عليه بعض من رأوه بتجنيب نفسه عناء تلك المحاولة ، لأن أخاه حمل ثقيل بالنسبة إليه . وهنا قال الصبى : « إنه ليس حملا ، بل هو أخى » . فهذا الصبى قد تعلم شيئاً ليس فى ميسور كثير من أبناء الأثرياء أن يتعلموه .

ليس من الضرورى فى هذا البحث أن نفصل جميع الحقائق عن جناح الطفولة ، بل يكفى أن ندرك أن لكل نوع من أنواع الجناح التى تسبق

اقتراب المراهقة فى كثير من الحالات تاريخاً خاصاً ، يحدد الصور التى تظهر فيها ، والظروف التى تثيرها . وسنعود إلى هذه النقطة أكثر من مرة .

ومن المهم أن يدرك الطفل النامى أنه يستند إلى والديه على الرغم من نمو قدرته على الاعتماد على نفسه ، واقترابه رويداً رويداً من حياة الرشد الاستقلالية . كما لا بد له أن يدرك أن أبويه مقيمان على حبهما له ، وعلى استعداد دائم للأخذ بيده ، وشد أزره ، كلما أحس الحاجة إلى ذلك . وهكذا يستطيع أن يواجه العالم بثقة هادئة واطمئنان .

وإذا كان الطفل غير متأكد من ذلك ، فقد تقوى فيه الرغبة إلى وضعه موضع الاختبار . وتلك رغبة معقولة إلى حد كبير ، ولكنها كثيراً ما تعبر عن نفسها فى صور من السلوك قل أن تبدو معقولة . فهذا غلام ينحدر من أسرة موسرة ، لم يسترح إلى مختلف المدارس الداخلية التى ألحق بها ، فأخذ يكتب الخطابات المسهبة إلى أمه ، يصف فيها ما يحسه من التعاسة ، أو بدأ يفر من المدرسة حتى يستطيع العودة إلى أحضان أمه ، لأنه بات يخشى أن يفقد ما كانت تغمره به من حنان ، إذا ما عاش بعيداً عنها . وذاك تلميذ فى مدرسة خارجية ، جم المشكلات ، خشن الطباع ، عنيف فى معاملة أساتذته ، كثير التحريض لزملائه ، دؤوباً على الشكوى إلى والديه من سوء ما يلقاه من معاملة لا يستحقها ، لأنه يدرك تمام الإدراك أن أبويه لا بد مهتمان ببحث الأمر مع ناظر المدرسة ، أو رفع الأمر إلى مجلس التعليم . فهو إذن يقوم باختبار قدرتهما على تأمينه ضد

صرامة العالم الذى لم يستطع التكيف له . وكل تلك دلائل واضحة على أن الطفل لم يتقدم فى نموه كما ينبغى ، إذ لم يستطع الاستغناء عن الاعتماد التام على أبويه .

ويحس بعض المراهقين ، الكبار منهم والصغار على السواء ، وكذلك بعض الراشدين ، بما يسمى « الحنين إلى الوطن » ، وذلك بمجرد الانتقال إلى إحدى المدارس الداخلية أو الكليات ، أو الالتحاق بعمل فى بلد بعيد . وكثيراً ما يلقون تشجيعاً على ذلك من بعض ذوى العواطف الرقيقة ، والحس المرهف ، الذين يرون ، لأسباب نجهلها ، أن هذا الحنين مظهر لفضيلة فى الشخص الذى يحسه ، ولا يدركون أن هذا الشخص ، فى الحقيقة ناقص النمو من الناحية العقلية ، وأن حنينه هذا ليس إلا ظاهرة مرضية . ومعظم الأغانى العاطفية التى تدور حول هذا الموضوع تعبر عن مدى ما يكنه الكثيرون من الناس من إكبار للحنين إلى الوطن . إننا لا نقصد طبعاً أن نحث المراهق على كراهة بيته ، أو عدم الشعور بالحنان نحو والديه ، والاعتراف بجميل ما بذلاه فى سبيله من تضحيات ، ولكننا ننادى بأن عجز المراهق ، وقد قارب العشرين ، عن تحمل الحياة بعيداً عن الأم يعتبر حالة مرضية . ومع ذلك كثيراً ما نجد بعض طلبة معاهد التربية يرفضون بعد تخرجهم مناصب فى بلاد بعيدة عن بلدهم ، بحجة أنهم لا يميلون إلى الانفصال عن أمهاتهم . وقد حدث أن حصل طالب على درجة الشرف فى العلوم ، فعرضت عليه وظيفة فى إحدى الكليات ، ولكنه رفض

قبوها حتى يستشير أمه فيه . وكانت أمه سيدة ريفية ، لم تغادر قريتها إطلاقاً ، وتجهل عن شئون العلم وحياة الجامعة وواجباتها قدر جهلها بشئون السياسة الدولية ! كذلك نصادف من حين لآخر فتيات لا يقبلن الزواج إلا بشرط السكنى إلى جوار بيوت آبائهن ، أو يشترطن أن تقيم أمهاتهن معهن فى الفترة الأولى من زواجهن .

ومن الجلى أن ازدياد استقلال الطفل بنفسه يعنى فى نظر الأم فقدها إياه إذ يجعلها تعتقد أنها لم تعد محور حياته واهتمامه ، وأنه قد أصبح فى غير حاجة إليها كما كان من قبل عند ما كان صغيراً . وهذه التضحية عسيرة على كل الأمهات ، بل ومستحيلة عند بعضهن . ولذلك يحاولن ، شعورياً أو لا شعورياً ، خلق مواقف تجعل الرباط الذى يربطهن بأبنائهن ميتناً محكماً . فنجد الأم فى بعض الأحيان تخبر ابنها بأنه سوف يفتقدها كثيراً إذا ما ابتعد عنها ، أو إذا ما وافتها منيتها ، وأن لن يجد امرأة تستطيع أن تقوم له بما كانت تقوم هى به . كما أنها قد تقيم الحوائل بينه وبين الزواج ، أو تخلق الصعاب بينه وبين كل فتاة تحس بصداقته لها . أو تحاول بطريقة لا شعورية أن تجعل منه ضرورة لحياتها ، إذ تظهر عليها أعراض المرض ، مما يضطر الابن إلى الارتباط بالبيت بدافع من واجبه حيال أمه ، وعرفانه لجميلها .

إن وظيفة البيت هى إعداد الطفل ، ففيه ينمو ويترقى ويبدأ من طور التواكل إلى طور الاستقلال النسبى . فإذا وجدنا مثلا أن الطالب الذى

قضى عامين أو ثلاثة أعوام فى إحدى مدارس المعلمين لم يصبح بعد مستعداً لاحتراف مهنة التدريس ، بل أخذ يسوف الأمر من سنة لأخرى ، فإننا عندئذ نكون مصيبين إذا حكمنا بإخفاق المدرسة فى إعداده لأداء وظيفته . وهذا القول يصدق على الأسرة أو البيت الذى يخفق فى إعداد أطفاله لأداء وظائفهم فى الحياة . فمهما كان مستوى هـذا البيت ، ودرجة الثقافة بين أفراده ، ومبلغ حنان الوالدين فيـه وصدق عاطفتهما ، فإنه يعتبر فاشلا فى تحقيق الغرض من وجوده .

ويتعرض القضاة لأحد مظاهر هذا الفشل عند ما يتحدثون عن صغار الخارجين على القانون ، إذ يشيرون إلى نقص « الرقابة المنزلية » ، الأمر الذى يعترف به الآباء فى بعض الحالات . ويحاول الآباء أحياناً أن يلتمسوا المشورة فيما يختص بالطرق التى يحسن بهم اتباعها مع أطفالهم الذين أفلت زمامهم ، فأصبحوا عاجزين على ضبطهم . ومما يؤسف له أن « الضبط » لا يعنى فى نظر الكثيرين أكثر من توقيع العقاب البدنى ، مع أن عدداً كبيراً ممن يرون هـذا الرأى يعترضون على القول بأن كبح جماح الفرس يستلزم إلهاب ظهره بالسياط . والحقيقة أن الضبط يعنى التوجيه نحو الغايات المنشودة ، والإرشاد ، والإغراء ، والعقاب عند الضرورة ، على الرغم من أن العقاب ، كوسيلة من وسائل الضبط ، غالبـاً ما يكون اعترافاً بالفشل . وكثيراً ما نسمع الأب الذى أساء ابنه السلوك خارج البيت يقول : متعجباً « إن هذا الأمر ليدق على فهمى ، فإن ابنى على أكبر جانب من حسن

الخلق فى المنزل » . وفى مثل هذه الحالات يحتاج « الخلق الحسن » إلى الاستقصاء والبحث مثل « الخلق السيء » تماماً . فقد يكون حسن الخلق عكس سوئه ، وذلك اعتراف سلبي بأن البيت لا ييسر ألواناً معينة من الإشباع ، مما يضطر الصبي إلى التعبير عنها فى خارجه . ونجد فى حالات أخرى أن من مظاهر الجناح أنه تعبير عن الرغبة فى الإشباع الذى يسهل إتاحة الفرصة للحصول عليه إذا ما أدركنا أن الطفل راغب فيه .

ومن وظائف البيت فى المجتمعات الحديثة إعداد الطفل لمعرفة وسائل التعامل بالمال . فإذا كان الطفل يحصل على المال كلما أراد ، فإن ذلك يعوده الاعتماد المستمر على أبويه ، ويحول دون استقلاله بنفسه ، إذ يميل إلى الاعتقاد بأن من واجب أبيه ، أو من يقوم مقامه من الكبار فيما بعد ، أن يزوده بكل ما يحتاج إليه من مال لتحقيق رغباته . وأن العالم ، على حد تعبير هذه الفئة من الصغار ، « مدين له بتوفير رغباته » ... كما كانت أمه « مسئولة عن توفير غذائه عند ما كان وليداً . وهذا اتجاه طفلى لم يتخلص منه الطفل ، كما أنه لن يتخلص منه ما دام هناك من يستجيب دوما لمطالبه . وقد دلت البحوث الحديثة التى أجريت على التلاميذ والتلميذات أن بعض الآباء يعطون أبناءهم فى كثير من الحالات مبالغ كبيرة من المال كلما طلبوا منهم ذلك. وقد حدث منذ وقت قريب أن أبدى مدرس فى إحدى المدارس الثانوية رغبته فى صرف ورقة مالية من فئة

الخمسة الجنيهات ، فتطوع طالب بصرفها له على الفور[١] . وإن حصول مثل هذا الطالب ، الذى لم يكن وقتئذ قد بلغ الخامسة عشرة من عمره ، على خمسة جنيهات من أبيه المشغوف بحبه ، ليتصرف فيها حسبما يتراءى له ، دون أن يبذل فى سبيلها من المجهود أكثر من طلبه إياها من أبيه ، يدل على أنه لم يتلقّ إعداداً قويماً فيما يختص بمعنى المال وطرق إنفاقه .

ويجد بعض الأطفال أنفسهم فى موقف حرج بسبب شعورهم بأنهم أفقر من زملائهم ، لا لأن آباءهم مملقون ، ولكن لأن أولئك الآباء يعطونهم مصروفاً يومياً يقل عما يتناوله رفاقهم فى نفس فصولهم . وقد يدعى الطفل أحياناً إلى مشاطرة زملائه بعض الحلوى ، وطبيعى أنه يحس أن الواجب يقضى عليه أن يدعوهم بدوره إلى تناول شىء شىء منها على نفقته . كذلك قد يرفض الأطفال فى بعض الأحيان الاشتراك فى نواحى النشاط المدرسى ، لأنهم لا يملكون من المال ما يتيح لهم ذلك . واعتراف الطفل أمام أقرانه بأنه لا يملك من النقود قدر ما يملكون يولد عنده الشعور بالخزى والمهانة ، ويثير فى نفسه الاستياء من أبويه . حدث ذات مرة أن طلب من إحدى التلميذات فى مدرسة ثانوية أن تحضر بعض النقود فى يوم معين لدفع ثمن الخامات اللازمة لبعض الأشغال اليدوية ، ولكن

---

(١) صادف المترجم كثيراً من الحالات الشبيهة بهذا الحادث ، عند ما كان مدرساً بالمدرسة النموذجية بحدائق القبة ، يذكر منها على سبيل المثال أن تلميذاً صغيراً لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره أضاع كيس نقوده يوماً أثناء لعبه . وعند ما عثر على الكيس الأنيق وجد بداخله أكثر من ثلاثة جنيهات وقلم حبر ثمين .

أم الفتاة لم تكن تعطيها مصروفاً يومياً ، لأنها تعتقد أن إعطاء الأطفال مالا يعودهم التبذير والإسراف . فكانت البنت تتألم لذلك كما كانت تضطر في كثير من الأحيان إلى الانسحاب من النشاط المدرسي ، وتجنب قبول دعوات زميلاتها لها ، لشعورها بعدم قدرتها على دعوتهن بدورها كما هو المألوف في مثل هذه الحالات . وكانت تشعر أن رفيقاتها ينظرن إليها على أنها دونهن ، ويعتبرنها « فقيرة » وذكرت أنها سمعت بعضهن يتحدثن فيما بينهن عن إملاق أمها . وعندما سألت أمها أن تعطيها النقود اللازمة لشراء المواد اللازمة لدروس الأشغال اليدوية ، أجابت الأم : « ليس معى الآن عملة صغيرة . سأعطيك ما تطلبين غداً . » فذهبت البنت إلى المدرسة على كره منها ، لأنها كانت تعلم أن الاعتذار عن دفع المبلغ المطلوب بعدم وجود عملة صغيرة سوف يعتبر انتحالا لعذر يقصد به إخفاء عجز أمها عن دفع النقود . وقد أبصرت في الصباح زميلة لها تضع كيس نقودها في مكان معين ، فاختطفته بسرعة ، وأخفته . وعندما فتحته عثرت فيه على نقود تكفي لسداد المبلغ المطلوب منها فدفعته ، ثم اشترت بما تبقى حلوى دعت زميلاتها إلى مشاطرتها إياها ، واستمتعت لأول مرة في حياتها بلذة القيام بدور المضيفة . ولكن لما كان هذا الأمر غريباً عليها ، فقد ثارت حولها الظنون ، واتجهت إليها الشبهات . ثم اضطرت أخيراً تحت الضغط إلى الاعتراف بفعلتها ، وكشف اعترافها عن التفصيلات التي ذكرناها . فاتهمت أمها بالضعة ، ووصفتها بأنها كانت أغبى من أن تفهم حقيقة

الموقف الذى بسطته لها .

وحدث فى حالة أخرى أن أبا سأل ابنه ، بعد أن أمضى فى مدرسته الجديدة قليلا من الزمن . عن مبلغ ما يحتاج إليه من نقود لمصروفه ، واستعرض الأب مع الابن ظروف الموقف ، واتفقا على مبلغ مناسب . وقد اشترط الأب أن يدون ابنه ما يأخذه وما ينفقه ، حتى إذا احتاج إلى مبلغ آخر من النقود استطاع أن يبرر حاجته إليه . وبعد مدة من الزمن رأى الولد نموذجاً لآلة بخارية أعجبه ورغب فى شرائه ، ولكن ثمنه كان يزيد على ما تحت يده وقتئذ من النقود ، فطلب إلى أبيه أن يعيره بعض المال ، ووعده بسداد هذا الدين مما سيوفره من مصروفه الأسبوعى . شاهد الأب النموذج ، واختبره ، وناقش ثمنه مع ولده ، ثم وافق على إعارته المبلغ المطلوب ، كما وافق على طريقة سداده . وهكذا شعر الابن أن أباه يعامله معاملة عادلة كريمة ، كما اكتسب فى نفس الوقت اتجاهاً عملياً إزاء المال ، وتعلم كيف يتعامل بصعوبة مشوبة بالمسئولية .

وفى حالة ثالثة كان أحد الآباء يفخر بأنه يعطى ابنته كل ما تطلبه منه من المال . ولكنه لم يدرك إطلاقاً أنها كانت تحس المهانة فى الذهاب إليه وطلب ما تريده ، وبسط الأسباب التى تدعوها لذلك . وبيان طريقة إنفاقها وكان الأب يعتقد أنه ينتهج سياسة حكيمة ، ولكنه غفل عن إدراك أن ما كان يستمتع به من شعور بالتفوق والكرم ، عندما يناول ابنته ثمن مشترياتها ، إنما كان على حساب ما كان ينتابها هى من شعور

بالمهانة . ولذلك فإنها كانت تفضل عدم مشاركة زميلاتها فى نشاطهن المدرسى ، على أن تسأل أباها ، إذا لم يكن فى مقدورها أن تدفع نصيبها فى ذلك . وكان من المفروض عليها أن تساعد أمها فى بعض الأعمال المنزلية البسيطة ، ولكنها كانت تتهرب منها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، منتحلة شتى الأعذار . وهكذا كانت المعاملة المالية سبباً فى إخفاقها فى التكيف للبيت والمدرسة على السواء . وأخيراً أرادت إحدى مدرساتها استقصاء حقيقة الأمر ، فتوصلت إلى معرفة هذه الحقائق . وكانت هذه المدرسة تعرف الأب الذى كان على جانب كبير من الذكاء ، وكان يعنى أشد العناية بصالح أبنائه ، فاتصلت به ، و بسطت له ظروف الموقف ، واتفقت معه على حل ملائم ، إذ كان عليه أن يدفع لابنته أجراً معيناً على ما تقدمه لأمها من معونة فى البيت ، فى صورة مصروف منتظم تستطيع أن تنفقه كما تريد . وقد أفضي هذا إلى تحسن ملحوظ فى موقف الابنة وعملها فى البيت والمدرسة . فلم تكن النتيجة المنشودة إذن هى تبسيط موقف عسير معقد ، بل التدريب على الاستقلال بالنفس .

ويصور الحلم التالى ذلك الصراع الذى يخبره الأطفال الذين قاربوا المراهقة . حدث قبل بدء العطلة الصيفية أن رأى غلام فى حلمه ، المرة بعد المرة ، أنه فى محطة السكة الحديد ، وأن باقى أفراد أسرته ، وهم أبوه وأمه وأخته ، استقلوا القطار الذى بدأ يتحرك مغادراً المحطة وقد خلفوه وحده على الرصيف . وكان الولد يستيقظ من نومه والأسى يغمره ، كما أنه كان

يصحو باكياً فى بعض المرات . وعندما سئل عن سبب اضطرابه ذكر أن مبعثه هو تركه وحيداً .

وعندما أخذ يتكلم فى صراحة ذكر أنه كان معتاداً أن يقضى العطلة مع أبويه على ساحل البحر كل عام . وكان المصيف الذى يؤمونه مكاناً بديعاً ، فكان مولعاً بالذهاب إليه . كذلك تحدث عن عطف والديه . واهتمامها البالغ براحته ومتعته . ولكنه غير من لهجة حديثه فجأة ، وقال إنه كان فى استطاعته أن يزيد فى استمتاعه لو أن أبويه قللا بعض الشىء من عنايتهما به ... وسمحا له باختياره وسائل متعته بنفسه ... ولو أن أخته وأمه وأباه — هكذا قال — « تركوه وشأنه ».

« فالانفراد » يعنى إذن تحرره من رقابة الأسرة وسيطرتها على جميع شئونه . والحلم يوضح بجلاء أنهم ما كانوا ليتركوه وحده إلا إذا انفصل عنهم . ولكن هذا الانفصال سيحرمه من قضاء عطلته السنوية على ساحل البحر معهم . وهكذا أخذت تتنازعه رغبتان : الرغبة فى الاستمتاع بالأشياء التى يكفلها له وجوده مع أسرته من ناحية ؛ والرغبة فى الحرية مقابل حرمانه من كل ذلك من ناحية أخرى . وهذا العنصر الأخير من عناصر الصراع هو الذى يدفع بالتلميذ إلى الهرب من البيت ، بينما يحفزه العنصر الأول إلى العودة إليه نادماً مستغفراً .

وهذا الصراع كما ذكرنا ترديد للصراع الذى سبق حدوثه للفطل أثناء انتقاله من مرحلة المهد إلى مرحلة الصبا ، أى من حياة التواكل التام إلى

حياة حافلة بنشاط اللعب الذى يرمى الطفل من ورائه إلى تأكيد ذاته . وقد تدفع الأخطاء ، وما يصحبها من ألم ، بالطفل إلى الاندفاع نحو أمه ، كما تثير فى نفسه الرغبة إلى أن يعود وليداً كما كان من قبل . ولكن فى وسعنا أن نعامله معاملة تمتزج فيها العطف بالتشجيع ، فلا نسرف فى الاضطراب لما أصابه ، بل نحثه على معاودة المحاولة ، وننصح له بالتزام الحرص والحذر . ومن المفيد ألا نغالى فى الاهتمام بما قد يبديه الطفل من ميل إلى النكوص ، فلا نزجره بقولنا : « لا تكن طفلا صغيراً » ، بل نشجعه بأن نقول له : إنك كدت أن تغدو غلاماً كبيراً ، فينبغى عليك أن تتصرف مثل الكبار من الأولاد » . وتظهر الحاجة إلى نفس هذا الاتجاه فى مرحلة المراهقة ، إذ ينبغى علينا أن نحث المراهق على التقدم ، وفى نفس الوقت نعمل كل ما نراه ضرورياً لجعل هذا التقدم هيناً ، يتمشى مع قدراته وتلك مهمة تحتاج إلى جهد حقيقى ، شأنها فى ذلك شأن نمو الفرد . ومجمل القول أن النجاح لا بد منه ، وقد يكون هذا النجاح عسيراً شاقاً ، ولكن لا بد من الظفر به فى النهاية .